أدب الأطفال وجهة نظر

د. حسن الأمراني

قال رسول الله، ﷺ:
«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أويمجسانه».
رواه أحمد في مسنده.

تعالت ـ منذ زمن ـ صيحات «التربية الحرة» منددة بالحجر المضروب على الأطفال، ومنادية بضرورة التحرر من كل ألوان التلقين، حتى تتحرر ملكات الطفل، ويتربى تربية «طبيعية»، في غير ما خضوع إلى توجيه معين. وكانت تلك الصيحات إحياءً لمذهب جان جاك روسو الذي سطره في كتابه (إميل). ثم ما لبثت تلك الصيحات أن واجهت بعض الخفوت، حين اعترضتها الوقائع، وتبين أن الطفل ليس مجرد مرآة عاكسة للمحيط الاجتماعي، بل هو مرآة من نوع خاص تتفاعل مع المحيط، وتنتقى منه ما يستجيب مع مكونات الطفل الأولية التي تتضافر على تكوينها عوامل شتى، ليس من أهونها العامل الوراثي، مما يسبب اختلافاً في الاستجابة لدى الأطفال المنتمين إلى محيط اجتماعي واحد. فالتلقين إذن قائم لا محالة، وإن اختلفت مصادره. فهو إما أن يكون تلقيناً موجهاً يقوم به الآباء الذي يتعهدون أبناءهم بالتهذيب، وإما أن يكون تلقيناً عشوائياً، يتعرض له الطفل من المجتمع، ومؤسساته المختلفة، والمتضاربة أحياناً.

ونحن حين نحتكم إلى الرؤية الإسلامية، يتبين لنا أن «كل مولود يولد على الفطرة» كما قال الرسول ﷺ أي يولد وبه استعداد وقابلية لتلقي الحق الذي هو نداء الفطرة، ولكنّ الأبوين (الصورة الأولى للمجتمع) قد يعملان على حماية هذه الفطرة من الانحراف، وقد يعملان ـ على العكس من ذلك ـ على تشويهها وتقويضها.

إن هذا هو الذي يجعل مسؤولية الآباء تجاه الأبناء جسيمة.

لقد عني الإسلام بالطفل عناية خاصة. وإذا كان الحديث الشريف، الآنف الذكر، يحدد تلك العناية منذ مولد الطفل، فإن لنا في التوجيهات النبوية الكريمة ما يبين أن هذه العناية قد تتقدم تلك المرحلة، أي قبل ميلاد الطفل، وذلك حين يوجه الإسلام الإنسان ليختار لنطفه، ويصطفي لولده أُمًّا صالحة، تكون قرة عين للزوج والولد. ولذلك قال بعض السلف لولده: يا بنيّ، لقد أحسنت إليك قبل أن تولد. قال: وكيف ذلك؟ قال: اخترت لك أمًّا صالحة.

إن عنايتنا بأدب الأطفال جزء من العناية الشاملة بالطفل.

وليس أدب الأطفال عندنا أدباً طارئًا، بل هو لون أدبي لم يفتر أبدًا، في وقت فترت فيه ألوان أدبية أخرى، وإن كان هذا الأدب ليس منظماً كلُّه ولا مدوناً كله. وقد كان للأدب الشعبي نصيب وافر منه.

إن الأناشيد والهدهدات والخرافات والأحاجي والألغاز وحكايات البطولة، كل أولئك كان له حضور قوي في حياتنا اليومية، قبل أن تنتشر

محمد إقبال

حمد سوقي

وسائل الإعلام الحديثة وتغزو البيوت، وتحمل معها من الأساليب ما يهدم تلك الأنماط الفنية من أدب الأطفال.

فمما لا يزال يجري على الألسنة في بعض المناطق بالمغرب الأناشيد المهدهدة:

نينّي يا مومو حتى يطيب عشانا
إذا ما طاب عشانا يطيب عشا جيرانا

ومن الأناشيد التي يرددها الأطفال عند الجفاف:

آسبولة عطشانا
ارويها يا مولانا.

وحين كان الطفل يختم بعضاً من القرآن الكريم (جزءًا معلومًا) يقوم بتزويق اللوح، ويخرج معه الأطفال، ولا سيما في بعض المواسم، ينشدون:

بيضه بيضه لله باش نزوق لوحتي
لوحتي عند الطالب والطالب في الجنة. إلخ...

ومن الحكايات الشعبية التي كانت تقدم للأطفال عند السهر: (سالف لونجة) و(مقيدش وحنا الغولة)، وسواهما، وكانت تلك الحكايات تمتاز بالإثارة والتشويق، كما أنها لم تكن تخلو من التوجيه التربوي، والهدف النبيل، كزرع قيم البطولة والإيثار وحب الخير والدفاع عن المستضعفين.

إن تلك الأنماط الشعبية من أدب الأطفال أخذت في الانحسار، منذ غزت وسائل الإعلام الناس في عقر دارهم.

لقد قام بعض كتابنا بتأليف نماذج من أدب الأطفال، منذ أوائل هذا القرن، فكانت الأناشيد والمحفوظات، كما كانت الحكايات التي تجري على ألسنة الحيوانات، وكان لأحمد شوقي -رحمه الله - حظ وافر في كل ذلك، وما زالت الأجيال اليوم، كما كانت بالأمس، تحفظ من شعره مثل قوله:

لي جدة ترأف بي
أحنّ عليّ من أبي

وقوله:

الحيوان خلق له عليك حق
سخره الله لكا وللعباد قبلكا

وقد حذو شوقي جماعة من الشعراء، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتقلوا بهذا الأدب نقلة نوعية، أبعد مما حققه أمير الشعراء، وإن كان هذا لم يمنع من أن تجري بعض منظومات معروف الرصافي ومحمود غنيم وإبراهيم أبو عباة وغيرهم على ألسنة الأطفال.

ثم ظهرت سلسلة من القصص الديني والتاريخي والاجتماعي عملت إلى حدّ ما على سدّ بعض الفراغ الحاصل في هذا اللون الأدبي، ونذكر في هذا الصدد محاولات السحار وعطية الأبراشي، كما ظهرت في المغرب، في العقد الحالي خاصة، محاولات في أدب الأطفال، كمحاولات البكري السباعي والعربي بنجلون وغيرهما، ولكن معظم هذه المحاولات ظلت متأخرة فنياً، قياساً إلى بعض ما ظهرت في المشرق منذ ما يقارب من نصف قرن.

لماذا الغياب العميق لشخصية الطفل ومكوناته النفسية والاجتماعية في أدب الطفل؟!

معروف الرصافي

إبراهيم أبو عباة

وفي باب القصص الديني، لا يسعنا إلا التنويه بالعمل الفذ الذي قدمه سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي في كتاب (قصص النبيين للأطفال)، هذا الكتاب الذي اعتبره سيد قطب رحمه الله، بحق، فريداً في بابه، فهو كتاب لا يكاد يستغني عنه مسلم صغير ولا كبير، لبساطة أسلوبه وعمق فكرته وتحريه الحق في سرد الوقائع.

ولكن مما يلاحظ على أدب الأطفال عندنا، عموما، هو غياب الفهم

العميق لشخصية الطفل ومكوناته النفسية والاجتماعية، وعدم التمييز بين المراحل الزمنية من عمر الطفل، ونحن نهتدي بالتوجيهات النبوية، كما نهتدي بالقرآن الكريم، في تلمس المراحل الزمنية المختلفة لعمر الطفل، كما يمكن أن نستعين على ذلك ببعض النتائج العلمية في هذا الباب.

إن الله تعالى يقول: ﴿**وفصاله في عامين**﴾. فالعامان الأولان من حياة الطفل يمثلان مرحلة أولى تكاد تكون التربية فيها وقفاً على الأم. وفي المرحلة التالية يبدأ الطفل في التفتح على المحيط، فيلقن اللغة، ويتعلم بعد ذلك ما يمكن أن يحتاج إليه في أموره الخاصة، وفي هذه المرحلة التي تنتهي بنهاية العام السادس، تبدأ المرحلة الثانية مع العام السابع، يفترض أن يكون الطفل قد تلقى مبادئ دينه، وتعلم الوضوء والصلاة، وحفظ قدراً من كتاب الله تعالى، حتى يكون قادراً على الاستجابة للنداء الذي سيوجهه إليه أبواه، وهو الصلاة امتثالا لقول الرسول، ﷺ «مروهم بها لسبع، واضربوهم عليها لعشر».

وإذا كانت المرحلة الثالثة تمتد من السابعة إلى العاشرة، فإن بعض العلماء يجعل الخامسة عشرة نهاية مرحلة وبداية أخرى. (راجع: ثقافة الأطفال في سلسلة عالم المعرفة).

ومما لا شك فيه أن طرق التلقي والتكوين عند الطفل تختلف من مرحلة إلى أخرى، فالقراءة مثلا مرحلة متأخرة، وهي مسبوقة بالتكوين المعتمد على السمع والبصر، أي على الصوت والصورة.

ونحن نرى كيف أن أدب الأطفال الذي يوجه إلى المراحل الأولى من عمر الطفل لا يكاد يراعي هذه الحقيقة بما فيه الكفاية. ونرى في الوقت ذاته كيف يصرف الأطفال جزءًا مهما من وقتهم في متابعة برامج الأطفال عبر جهاز التليفزيون، ومما لا شك فيه أن تلك البرامج تحقق شطراً مما يحتاج إليه الطفل، وهو الترفيه والتسلية، ولكنها من جهة أخرى تقصر في الشطر الثاني المتعلق بالتربية البناءة والتوجيه السليم، بل هي على العكس من ذلك تهدم ركناً من الأركان الأساسية في بناء شخصية الطفل المسلم، وهذا الركن هو: الحياء. وإن نظرة خاطفة إلى أشرطة الرسوم المتحركة، التي تنجزها إما محطات غربية، وإما جهات متغربة، ويتم بثها على أطفالنا، إما في لغاتها الأصلية، وإما بعد تعريبها، لتبين إلى حد بعيد، كيف أن ما يسعى الآباء إلى بنائه في أزمان، تهدمه تلك البرامج في لحظات.

وهكذا فإن أدب الأطفال عندنا يجب أن يرقى إلى مستوى العصر، ويدخل عصر الأجهزة السمعية البصرية، محصناً بالرؤية الإسلامية في معالجة الأمور.

ولعل هذا مما لا يقدر أن ينهض به فرد واحد، ولذلك لا بد للمؤسسات والهيئات والمنظمات الإسلامية، ومنها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، أن تولي عناية خاصة لهذا الأمر، بالتوجيه المعنوي والدعم المادي، بقدر الاستطاعة: ﴿**واتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا**﴾.

ومما ينبغي أن أنبه إليه هنا أيضا ما تعانيه الأنشطة المدرسية من فقر في النصوص الملائمة، من نشيد ومسرح وغيرهما، إذ كثيراً ما نجد لدى بعض المسؤولين عن هذه الأنشطة رغبة أكيدة في تقديم عمل إسلامي هادف في المناسبات، ولكنهم يصطدمون بغياب النص الإسلامي.

إن النص الإسلامي قد لا يكون غائباً، ولكنه مغيّب، لأسباب قد يعود بعضها إلى ما نعانيه من عجز. لقد عجبت حقا أني رأيت الطفل المسلم في الهند، يحفظ شعر محمد إقبال وينشده ويتغنى به. ونحن إلى اليوم، في عالمنا العربي، لا نكاد نجد شاعراً واحداً بلغت شعبيته إلى أن يصبح شعره، أو بعض شعره متدفقاً على كل لسان. إن النص قد يوجد في قطر من الأقطار، ولكن ينبغي العمل على تعميمه ونقله إلى الأقطار الأخرى، كما ينبغي لمؤسسات النشر الإسلامية أن تقوم بواجبها في دعم أدب الأطفال بتعميم نشره وتوزيعه والتعريف به.

في المدة الأخيرة، اتصل بعض الناشرين بالشاعر محمد علي الرباوي لنشر مجموعته الشعرية الخاصة بأدب الأطفال (عصافير الصباح)، وقد خرجت هذه المجموعة في حلة أنيقة. ولقد أسعدني هذا الحدث وأحزنني في الوقت ذاته: أسعدني لأني أعتبره اعترافا بالأدب الإسلامي، ممن كانوا ينكرون وجود هذا الأدب، وأحزنني؛ لأنني كنت أود أن تكون بعض دور النشر الإسلامية، سباقة إلى هذه الالتفاتة، فتعمل على نشر المجموعة وتوزيعها وتعميمها.

قصة
قصيرة

صـــــورة

بقلم / د. حسن الوراكلي

انقضت الدقائق الثلاثون التي وعد الصديق (س) أن يعود خلالها . . . ولم يعد بعد! .

منذ لحظات . . دخلنا المدينة . .

صباح رمادي اللون . . تنذر سماؤه الغائمة بأمطار غزيرة . . .

ما أحوج (البلاد والعباد) إلى الأمطار الغزيرة . . !

همست إلى نفسي أو همست إليّ نفسي :

﴿ . . . وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ .

كان الصديق (س)، قبل أن يمضي لقضاء بعض مآربه، أشار عليّ أن أنتظره في« منتزه المدينتين» . وهو منتزه لاسمه موقع في قلبي . . . إنه يقع في ملتقى المدينتين القديمة والجديدة : التراث والمعاصرة!

منذ زمن غير يسير أعلنت عصياني على المقاهي . . غير أنني، اللحظة؛ وقد أخذ العياء مني مأخذه . . سلمت أمري إلى الله!

وجلست في انتظار الذي يأتي!

رميت بصري إلى الأفق الغربي حيث ترقد المدينة الجديدة . .

طالعتني منارة «الكتدرائية ترتفع في (أمان واطمئنان) . . .

همستُ لنفسي أو هَمَسَتْ لي نفسي :

(لابأس عليها، وعلينا، فنحن أمة سلام وتعايش) .

تحولت ببصري إلى الأفق الشرقي حيث ترقد المدينة القديمة . . . . .

وتتراءى المآذن وتتزاحم . ومنها ترتفع أصوات المؤذنين نهاراً وليلاً بكلمات كن عدة أمة لم تكن لها من قبل عدة دخلت بهن التاريخ وصنعت بهن الأمجاد . . .

همست إلى نفسي أو همست إلى نفسي :

(ثم . . . ماذا؟ ليس في الأمر خفاء . . حين لم تعد هذه الأمة تسمع) تلك الكلمات و(تعيها) لتبدع بوحي منها وتنجز، وتفتح بها المغلق، وترتاد المجهول . نحاها التاريخ إذ ذاك عن طريقة . . ثم أخرجها من فلكه مذمومة . مدحورة!) .

لم يعد صديقي بعد!

غير بعيد عني كانت تجلس امرأة تتدثر

قصة قصيرة

بجلباب وتنتقب ببرقع أسود، وبجانبها رجل، الظن أنه زوجها . . . كهل ذو وجه حليق محتقن. منذ جلس وهو يدخن . . ويحوقل! كان يبدو قلقاً. منزعجاً. وعبثاً كانت تقول له في صوت مسموع محاولة أن تخفف من قلقه وانزعاجه (ما يكون بأس يا حاج . . أين تكون بنتك؟ إما في الكلية أو في الحي . . سوف تأتي؟) إن قلق الرجل وانزعاجه مردهما إذن إلى تأخر ابنته عن المجيء إليه في موعد سبق أن اتفقا عليه. وحين أقبلت . . كاسية . . عارية . . في أبهى زينة و(أرقاها) اخلع عليها ما شئت من الصفات والنعوت إلا أن تقول (طالبة) . . . وحين وقفت تتدلل وتلقي على والديها بـ(بونجور)[1]، انشرحت أسارير (الحاج) وتنفس الصعداء. وقال لها: (تأخرت يابنتي). وازدادت أسارير وجهه انشراحا وهي تقول له مشيرة إلى شاب كان يقف بجانبها وقد تدلى شعره على كتفيه ووجهه (بقيت مع فاروق . . . صديقي وزميلي في الكلية).

حوقلت كما كان يفعل (الحاج) منذ لحظة . . .

ثم همستُ إلى نفسي أو همست إلي نفسي:

(أو على أكتاف مثل هذه الأسرة ستبني هذه الأمة كيانها وتحصن وجودها!؟).

لم يعد صديقي . . . بعد!

لأقراء . . .

قلبت أوراق صحيفة (وطنية) كنت أمسك بها. رددت النظر في مختلف العناوين كبيرة وصغيرة: (حملة للتوعية الدينية في جميع مساجد البلاد). (سهرات إلى الصباح بالفندق الكبير بمناسبة رأس السنة: موسيقى. مالذّ من الطعام والشراب!) (أوقات الصلاة لبعض المدن وما جاورها) . . .

كما كان يفعل (الحاج) الحليق منذ لحظة . . . حوقلت وحوقلت!

لم يعد صديقي . . . بعد!

في الرصيف المقابل يشجر خصام بين رجلين سرعان ما يتحول من كلام بذيء وساقط يتبادلانه إلى معركة (ساخنة) بالأيدي والأرجل . . . يتجمع الخلق حولهما من كل فج وصوب. وكأنما انشقت الأرض فجأة، عن شرطيين اخترقا الجمع يرغيان ويزبدان. ثم ما هي إلا لحظة كلمح البصر حتى انفضّ الجمع (شَذَرَ مَذَرَ) مشيعاً بسبّ الشرطيين وسبابهما، وسيق أحد المتخاصمين دون الآخر. لم ندر سبباً لذلك. تنهال عليه صفعات الشرطيين. ومع كل صفعة، أو ربما قبلها وبعدها كذلك. كان أحدهما يرفع عقيرته على رأس الملأ: (ولد الكلاب . . . زد. الله يلعن . . . !).

مثلما كان يفعل (الحاج) الحليق منذ لحظة . . . حوقلت وحوقلت!

لم يعد صديقي . . . بعد!

ثلاث فتيات في عمر الزهور يقبلن وهن يرتدين ثيابا فضفاضة ويغطين رؤوسهن بشالات مختلفة ألوانها. حين مر بهن شابان قال أحدهما للآخر:

(انظر . . . رجعيّات!)

شعرت برغبة جامحة في اللحاق به لأصرخ فيه:

- (بل مسلمات ملتزمات . . .)

لكني كتمت غيظي، وفعلت مثلما كان يفعل (الحاج) الحليق منذ لحظات. حوقلت وحوقلت في انتظار الذي يأتي . . !.

حين عاد الصديق (س) حدثته بما حدثتكم به . . .

قال لي:

- ومتى يهتدي هؤلاء . . ؟

أطرقت برهة، ثم قلت:

- (. . . حتى تأتيهم «البينة» مبرأة من الشوائب، مجردة من الأهواء، غضة، طرية كما أنزلت!).

هيا بنا نستأنف رحلتنا . . ندخل مدينة وأخرى كهذه تكثر صوامعها . . .

(١) كلمة «بونجور» بالفرنسية تعني صباح الخير.